# العلاقات التجارية والحضارية بين أمالفي الإيطالية والشرق العربي في القرون الوسطى

# Medieval Amalfi–Arab East Trade and Cultural Relations

أ.د حبيب البدوي[1]، الباحث: علي طباجة[2]

**Prof. Habib Badawi , Ali Tabaja**

[1]الجامعة اللبنانية، لبنان، habib.badawi@ul.edu.lb

[2]الجامعة اللبنانية، لبنان، ali.tabaja@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/03/29 تاريخ القبول: 2024/10/25 تاريخ النشر: 2025/03/22

**ملخص:**

بينما تركز الدراسات العربية والأجنبية على الدور المحوري للدول – المدن الإيطالية، بخاصة جنوى والبندقية، في التجارة والصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في القرون الوسطى، لمع نجم مدينة أمالفي في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين في تجارة المتوسط، ولعبت في هذه الحقبة مع مدينة البندقية المطلة على البحر الادرياتيكي دوراً رئيسا في التجارة مع المسلمين والبيزنطيين. ستحاول هذه الدراسة الإحاطة بتاريخ أمالفي التجاري، مع تسليط الضوء على الجوانب الحضارية في علاقاتها مع الشرق العربي. كذلك تهدف الدراسة الى تسليط الضوء على دور أمالفي التجاري والحضاري في العصور الوسطى، والكشف عن الجوانب الحضارية لهذا الدور والتي ترافقت مع التبادل التجاري، وإماطة اللثام عن محطات متعددة للحقبة التي توسطت بين وصول المسلمين الى أجزاء واسعة من سواحل المتوسط وجزره، وبين سيطرة النورمان على جزيرة صقلية والجنوب الإيطالي والحملات الصليبية. لعبت المدن التجارية الأوروبية وخاصة المحاذية منها لشواطئ البحر المتوسط، دوراً أساسياً في عملية التبادل الحضاري بين شعوب هذا البحر وخاصة بين الشعوب الأوروبية والمسلمين، لأنها تعاطت التجارة مع المسلمين، ولمعت أسماء مدن إيطالية مهمة مثل البندقية وجنوا وبيزا وفلورنسا، لكن كان لمدينة أمالفي الإيطالية دورها المميّز وبقي اسمها مغموراً في طيات التاريخ، ولم يعرها المؤرخون والأكاديميون العرب كبير الاهتمام في كتاباتهم.

**كلمات مفتاحية:** أمالفي، التجّار، المسلمين، علاقات، البيزنطية، المتوسط، إيطاليا.

**Abstract**

While Arab and Western studies commonly highlight the significant role of Italian city-states such as Genoa and Venice in trade and conflicts between the Islamic East and Christian West during the Middle Ages (ninth to eleventh centuries), this research sheds light on the often-overlooked dominance of Amalfi in Mediterranean trade. Despite the pivotal contributions of cities like Venice, Genoa, Pisa, and Florence, Amalfi played a crucial role in fostering civilized exchange between the peoples of the Mediterranean, particularly between Europeans and Muslims. Surprisingly, Arab historians have not given due recognition to Amalfi's influential role.

This study aims to uncover the civilized aspects of Amalfi's role in commercial exchange during the Middle Ages. It explores various historical moments when Amalfi acted as a mediator between Muslims arriving on the Mediterranean coasts and islands and the Normans' control of Sicily and southern Italy, including the period of the Crusades. Amalfi emerges as a key player in facilitating trade between Muslims and the Byzantines.

Furthermore, the research delves into Amalfi's cultural relations within the broader context of Mediterranean civilizations. The city's interactions and connections with various cultures are examined, emphasizing its significant cultural contributions to the rich tapestry of Mediterranean history.

**Keywords:** Amalfi, merchants, Muslims, relationships, Byzantine, Mediterranean, Italy.

## 1 مقدمة

تنطلق الدراسة من الإشكالية الرئيسة التالية: هل وجدت مدينة تجارية إيطالية في العصر الوسيط اسمها أمالفي وهل كان لها علاقات تجارية مهمة في تجارة البحر المتوسط، سواء مع الدول الإسلامية او مع الإمبراطورية البيزنطية، وفي أي حقبة برزت أمالفي وعلاقاتها التجارية مع المسلمين والبيزنطيين، هل كانت علاقات أمالفي مع المسلمين مميزة أم كانت شبيهة بعلاقاتهم مع بقية المدن الإيطالية؛ لماذا لم تشارك أمالفي في الحملات الصليبية كسائر المدن الإيطالية وهل انخرطت في نشاطات عسكرية وسياسية، أم اقتصر نشاطها على التبادل التجاري. أخيراً ما هي مظاهر التفاعل الحضاري بين أمالفي والمسلمين والبيزنطيين؟

أما المصادر العربية فاكتفت بالحديث عن العلاقات التجارية والسياسية والعسكرية مع التجار الغربيين عامة، دون التطرق للأثر الحضاري لهذه العلاقات، لذلك لم يرد ذكر لأمالفي التي لم يكن لها نشاطات سياسية

وعسكرية باستثناء حادثة حريق الأسطول الفاطمي في مصر وأشير إليهم تحت مسمّى "التجار الروم". كما أن المراجع العربية تجاهلت بشكل شبه كلي لتاريخ العلاقات بين أمالفي والمسلمين، وركزت بدورها على العلاقات مع المدن الايطالية الأخرى كالبندقية وجنوا وبيزا، باستثناء كتاب واحد لمصطفى الحناوي[1] وضمّ الكتاب دراسة قيّمة ضمّنها ترجمة لبعض الوثائق الإيطالية القديمة، ومنها القانون التجاري الذي وضعته المدينة، وكان أول قانون بحري إيطالي يحمل اسمها وبقي معمولاً به لمئات السنين. كما يرد اسمها في بعض كتب التاريخ البيزنطي. أما التاريخ السياسي والحضاري للمدينة فلا يمكن الحصول عليه سوى من المصادر الأجنبية وبعضها المترجم الى العربية، كذلك بعضاً من النشاط التجاري للمدينة في مراجع كتب التجارة المتوسطية، الأجنبية منها والمعرّبة.

المنهج الذي اعتمدته في هذه الدراسة، هو المنهج التاريخي، للتحقق من صحة الأحداث والروايات التاريخية، واعتماد السرد مع النقد والتسلسل التاريخي اللازمين لوحدة الدراسة وترابطها، ومن البديهي ان يكون للمنهج الجغرافي حصة، لأن الموقع الجغرافي لأمالفي وحوضي البحر المتوسط، طبعا تاريخها ونشاطها التجاري.

يقول برادفورد[1] Bradford، ان البحر المتوسط الذي تحده أوروبا من الشمال وافريقيا من الجنوب، وآسيا من الشرق، يحتل خندقاً عميقاً بين هذه القارات؛ هذا الخندق كان منقسماً الى حوضين: الحوض الغربي، والحوض الشرقي، فالغربي يمتد من جبل طارق الى جزيرة صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية، والشرقي من صقلية الى الشواطئ الآسيوية. هناك تجانس مناخي بين كل شواطئ هذا البحر، وهذا التشابه في المناخ والمزروعات مثل الكرمة والزيتون والرمان، جعلت الأجزاء الجنوبية من أوروبا مثل إسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان، أكثر ارتباطا وأوثق صلة بالسواحل الأفريقية والشرق آسيوية منها بالشمال والشرق الأوروبي، على حد قول بروديل[2] Braudel[3].

يمكن القول بأن شبه الجزيرة الإيطالية التي تشق وسط البحر المتوسط مع جزيرة صقلية، يشكلا معاً الحاجز الطبيعي بين حوضي المتوسط، الغربي والشرقي، وارتباط سكان الشواطئ الجنوبية لإيطاليا بالسواحل

1 ايرنل برادفورد Ernele Bradford (1922-1986)، هو مؤرخ بريطاني مشهور، متخصص في عالم البحر المتوسط والمواضيع البحرية، كان ملاحاً متحمساً، وقضى ما يقرب من ثلاثين عاماً في الإبحار في البحر المتوسط، حيث كتب العديد من كتبه، خدم في البحرية الملكية البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، وحصل على رتبة ملازم أول على ظهر مدمرة. عمل في هيئة الإذاعة البريطانية ومحرراً في مجلة، وكتب العديد من الكتب.

Ernle Bradford. (n.d.). Military Wiki. Retrieved April 1, 2023, from https://military-history.fandom.com/wiki/Ernle_Bradford

الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط موغل في التاريخ، هذه السواحل التي فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي، وانصهر أهلها بالحضارة العربية الإسلامية، فأضحت في فترة غير طويلة، بلداناً عربية إسلامية، فلا عجب أن تزدهر التجارة بين المدن الإيطالية المتوسطية وخاصة الجنوبية منها مع البلدان الإسلامية المقابلة.

برزت من هذه المدن التجارية في القرون الوسطى مدينة تدعى أمالفي Amalfi، والتي تقع على الساحل الغربي للجنوب الإيطالي، وتطل على البحر التيراني Tyrrhenian sea الذي يشكل امتداداً للبحر المتوسط، ويحتل المساحة الواقعة بين السواحل الغربية لإيطاليا، وجزر صقلية Sicily وسردينيا Sardinia وكورسيكا Corsica، وتطل على هذا البحر مدن جنوى Genoa و بيزا Piza وسالرنو Salerno وأمالفي Amalfi ونابولي Naples وجيتا Geata في البر الإيطالي، وبالرمو Palermo ومسينا Messina في جزيرة صقلية.

**مدينة أمالفي قبل فترة الازدهار التجاري**

**1.1 التسمية والموقع الجغرافي:**

يردد أهالي أمالفي بأن مدينتهم تأسست على يد مجموعة من المهاجرين من مدينة ملفي Melfi[4] وان اسمها مقتبس من اسم ملفي[5]. تقع مدينة أمالفي Amalfi في جنوب إيطاليا وجنوبي روما، تطل على خليج سالرنو Salerno في منطقة كامبانيا Campania على السواحل الغربية المطلة على البحر التيراني، وفي شبه جزيرة صغيرة تمتد بين خليجي نابولي Napoli وسالرنو، وتحيط بها الجبال من ناحية البر الإيطالي بشكل محكم، فلا يمكن الوصول اليها براً إلا عبر هذه الجبال، لذلك كان البحر هو الطريق الأيسر للوصول اليها في القرون الوسطى، وهي غير مدينة ملفي Melfi التي تقع في الجنوب الإيطالي أيضاً ولا تبعد كثيراً عن أمالفي، وهي مشهورة بأنها المكان الذي أبرم فيه الاتفاق بين البابوية والنورمان[2] سنة 1059م[6].

[2] النورمان: Normands (أهل الشمال): اسم أطلق على غزاة الڤايكنغ القادمين من بلاد اسكندنافية والذين تدفقوا على أوروبا منذ القرن الثامن الميلادي، على الغالب بسبب الكثافة السكانية وقلة الموارد، ثم انتظموا في عصابات من القراصنة وشكلوا أساطيل صغيرة من الزوارق الكبيرة، وتسللوا عبر فتحات الأنهر نحو مملكة الفرنج، وعام 911 تخلى لهم ملك الفرنجة شارل السمين عن المقاطعة التي حملت اسمهم منذ ذلك التاريخ وعرفت باسم نورماندیا، اعتنقوا المسيحية وتوقفوا عن شن الغارات. لكن ولأن روح المغامرة من طباعهم، هاجموا إنكلترا وسيطروا عليها سنة 1066م، كما غزوا

## 2.1 أمالفي في كتب الرحالة:

ذكر الجغرافي العربي الإدريسي[3] المدينة التي أسماها "ملف" بقوله "هي مدينة عامرة يُرسى بها، متحصنة من جهة البر سهلة من جهة البحر إذا حوربت أخذت، وهي قديمة أزلية ذات سور جيد وأهلها بشر كثير مياسير"[7]، كذلك أشار اليها المؤرخ الصليبي وليم الصوري[8] بقوله: "مدينة أمالفي تقع بين الجبال الشاهقة والبحر، والى الشرق منها ... مدينة سالرنو ... والى الغرب سورنتو ونابلي"[9] ؛ كما وصفها الرحالة ابن حوقل[10] الذي زارها في القرن العاشر الميلادي: ''مدينة ملف أخصب بلدان الانكبرذة[4] وأنظفها وأجلّها احوالاً وأكثرها يساراً وأموالاً، وتتصل أرض ملف بأرض نابل[5]، وهي مدينة صالحة الحال دون ملف في أكثر أحوالها"[11]، وأخيراُ وردت في كتابات الرحالة الاندلسي اليهودي بنيامين التطيلي[12] والذي زارها في الفترة ين عامي 1165 و1172م فوصف أهلها بالأشداء وبانهم يقيمون في الجبال الشاهقة والصخور السامقة، ويعملون بالتجارة لا بالزراعة، تكثر فيها الكروم وأشجار الزيتون، ويبتاع أهلها كل شيء بالمال وفيها 20 يهودياً وعادة يقصد التطيلي 20عائلة يهودية وليس 20 فرداً[13].

ان زائر أمالفي في العصر الحاضر لا يتبادر الى ذهنه، بأن هذه البلدة الهادئة على الشاطئ والمحاطة بالجبال كانت في يوم ما، مركزاً تجارياً هاماً، وبلا شك أهم المراكز التجارية في غربي البحر المتوسط[14]. هذا الموقع هيأها لتلعب دوراً هاماً في التجارة البحرية في القرون الوسطى، والمساهمة في التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط، خاصة بين ضفته الشمالية الأوروبية والضفة الجنوبية العربية والإسلامية، والضفة الشرقية التي شكلت بيزنطية جزء منها في تلك الحقبة، وذلك يعود الى شجاعة الأمالفيين واكتشافهم لأهمية الموقع الجغرافي لمدينتهم، ونسجهم

---

جنوب إيطاليا منتصف القرن الحادي عشر الميلادي وأسسوا مملكة لهم في جنوب إيطاليا وصقلية (المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط34، بيروت، 1994).

[3] الشريف الادريسي القرطبي (1100- 1165)، رحالة ومن أكابر علماء الجغرافيا العرب، ولد في سبتة بالمغرب الأقصى ونشأ في قرطبة بالأندلس، صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" والمعروف بالكتاب الروجاري لأنه نزل على ملك صقلية روجار الثاني بعد إتمام رحلته، وألف الكتاب بناء على رغبة روجار، ويحوي الكتاب أدق ما كتب العرب عن بلاد أوروبا وإيطاليا، يعتبر الادريسي أول من ألف خريطة جغرافية في العالم (الاعلام للزركلي، ج7، ص 24).

[4] يقصد بالانكبرذة: منطقة لومبارديا، أي الخاضعة لسلطة اللومبارديين وهم من الشعوب الجرمانية التي غزت إيطاليا واستوطنتها.

[5] نابل: المقصود هو مدينة نابولي.

العلاقات الودية مع القوى الكبرى على شواطئ البحر المتوسط من اسبانيا الى البحر الأسود، ومن مصر الى البحر الادرياتيكي، ومن شمال افريقيا الى صقلية والشرق الأدنى، خاصة بعد سيطرة العرب على جزيرة صقلية المجاورة.

### 3.1 الجنوب الإيطالي في القرون الوسطى

بعد سقوط روما والقسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية تحت ضربات الجرمان عام 486م، استمرت الإمبراطورية في قسمها الشرقي بما عرف لدى المؤرخين بالإمبراطورية البيزنطية، وتعاظم دور البابوية السياسي في أوروبا. بالنسبة الى إيطاليا، أصبحت ممزقة لاحقاً بين ثلاث قوى هي: الجرمان اللمبارديون[6] في الشمال، والبابوية في الوسط، والدولة البيزنطية في الجنوب[15]، ولكن التوسع اللومباردي تواصل مطلع القرن الثامن باتجاه الوسط والجنوب، وتعرضت أمالفي ومنطقتها للغزو اللمباردي بعد سيطرتهم على بنقنتو Beneventoوسالرنو Salerno المجاورتين[16]، وحاولوا الاستيلاء على نابولي وأمالفي وجيتا، والمدن التجارية الثلاث كانت لاتزال تتبع الامبراطورية البيزنطية.

هذا الزحف اللومباردي لجمته مملكة الفرنجة بطلب من البابا[17]. عاود اللمبارديون هجماتهم بعد وفاة شارلمان[18] وتفكك امبراطوريته عام 843م، لكن سكان الجنوب الايطالي ردوا هذه الهجمات وطلبوا أحياناً المساعدة من جيرانهم المسلمين في صقلية؛ وهكذا بقي معظم الجنوب الإيطالي تحت السيطرة البيزنطية لكن التبعية كانت إدارية أكثر منها سيطرة سياسية وعسكرية مباشرة، فكانت المنطقة مكونة من عدة دوقيات لكل منها حاكمها المباشر.

منذ مطلع القرن التاسع، كثف المسلمون هجماتهم في جنوب إيطاليا، حتى وصلوا في بعض المرات الى روما نفسها كما حصل عام 849م، مما أجبر البابا على دفع الجزية لهم، وأنشأ حلف من المدن البحرية الإيطالية من أمالفي ونابولي وجيتا لصد هذه الهجمات، واستطاع هذا الحلف الحد كثيراً من هذه الغارات، وحصلت هذه المدن من البابا على لقب " المدافع عن الإيمان"[19] .استطاعت مدينة أمالفي الحفاظ على استقلالها، مع البقاء على التبعية السياسية لبيزنطية.

### 4.1 نظام أمالفي السياسي

[6] اللومباردیون هم آخر القبائل الجرمانية التي غزت إيطاليا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وأسسوا مملكة لهم في شمال إيطاليا حوالي سنة 572م، وبدأوا توسعوا نحو وسط وجنوب إيطاليا. (للمزيد، الاطلاع على كتاب تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور).

لا يوجد معلومات تاريخية وافية عن تاريخ أمالفي قبل القرن الميلادي الثامن، فأولى المصادر التاريخية التي ذكرتها، ظهرت في رسالة للبابا غريغوري الكبير[20] في أوائل سنة 590م. وفي الفترة ما بين 596 و839م كان دوق نابولي هو من يعيّن حاكماً للمدينة، ثم أصبحت امالفي مستقلة، وبين عامي 839 و859م أصبحت تنتخب حاكمها بلقب Prefetturi لمدة سنة واحدة، فأصبح نظامها جمهوري، لأن جميع السكان كان يشارك في عملية الانتخاب. ظهر سنة 859م لقب دوق وسميت دوقية امالفي، وبات الدوق ينتخب مدى الحياة. استمر ذلك حتى العام 897م حيث توقف الانتخاب وأصبح الحكم وراثياً، فظهرت الأسر الحاكمة وأصبح للدوقية طابعها الارستقراطي، واستمر ذلك حتى سقوطها على يد النورمان وفقدانها الاستقلال السياسي سنة 1131م.

تحرر أمالفي وبناء سلطتها المستقلة، ساعدها على إقامة علاقات تجارية نشيطة مع المسلمين والبيزنطيين والأوروبيين في وقت واحد، وربما كان عدم وجود علاقات دبلوماسية دائمة بين ممالك الغرب المسيحية والبيزنطيين والدول الإسلامية، هو الفرصة للمدن التجارية الإيطالية بإقامة علاقات تجارية مع الشعوب الأخرى وجمع الثروات[21]، مستفيدة في الوقت عينه من النزاع الذي قام بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية التي نشأت في شمال افريقيا ثم انتقلت لاحقاً الى مصر. منتصف القرن التاسع الميلادي أصبحت مدينة أمالفي واحدة من أهم الجمهوريات الإيطالية البحرية ونافست البندقية Veniceوبيزا Piza وجنوا Genoa وجيتا Gaeta[22]، وواصلت ولاءها للإمبراطور البيزنطي[23].

## 2. تجارة أمالفي قبل سيطرة النورمان والحملات الصليبية

### 2.1 التجارة مع الفاطميين

يقول المؤرخ الألماني ڤلهالم هايد في مقارنته بين تجارة المتوسط في العصور القديمة والعصور الوسطى، بأن الطرق التجارية بقيت نفسها لكن تغير الوسطاء التجاريون، فبدلاً من الرومان واليونان، نشأت طبقة من الايطاليين والفرنسيين والاندلسيين، أدت دور الوسيط بين الشرق والغرب[24]، وكان تجار أمالفي والبندقية من أوائل التجار الذين امتهنوا هذه الوساطة. يرجح ان يكون تجار أمالفي امتهنوا التجارة بين الجنوب الإيطالي وصقلية مع افريقيا البيزنطية في القرن السابع، ومع وصول العرب المسلمين الى البحر المتوسط، وبخلاف باقي المدن الإيطالية، كانت العلاقات بين أمالفي والمسلمين هي حصراً علاقات تجارية بعيداً عن أية مصالح أو تحالفات سياسية أو عسكرية، ونشطت التجارة بين أمالفي ومرافئ صقلية الإسلامية ومصر وفلسطين، مما أتاح لها إقامة تجارة مباشرة

مع أهم مدن العالم الإسلامي في تلك الحقبة، وإنشاء أولى البعثات التجارية الغربية الدائمة في بيت المقدس وانطاكية، بالرغم من إلحاح البابوية في روما على قطع العلاقات مع المسلمين[25]. كما كانت لها هناك علاقات تجارية مع الفرنجة. كانت أمالفي والبندقية وجيتا من المناطق التي نشطت تجارتها في البحرين المتوسط والأسود، بمباركة ودعم من بيزنطية، وتقلصت التجارة اليونانية في المتوسط والتي كانت مهيمنة في القرن الثامن لصالح المدن الإيطالية الآنفة الذكر.

مع وقوع صقلية كلياً بيد المسلمين سنة 902م، ثم استيلاء الفاطميين على تونس سنة 909م، أعقب ذلك تحرر البر الإيطالي بالكامل من المسلمين، وكذلك انحسار نشاط القراصنة العرب، حيث كان المسلمون في شمال أفريقيا وخاصة الأغالبة يسمّون هذا النشاط العسكري بالجهاد البحري؛ أدى كل ذلك الى فترة من الهدوء النسبي، فتراجعت التجارة البيزنطية في البحر المتوسط وأصبحت السيادة للبحرية الإسلامية، ترافق ذلك مع ازدياد النشاط التجاري للمدن الإيطالية مع المدن الإسلامية ومع القسطنطينية[26].

مع تركز الخلافة الفاطمية في مصر منذ العام 971م، وازدياد الثروة التي تمتعت بها مصر في مطلع الخلافة الفاطمية، تضاعف النشاط التجاري بين موانئ طرابلس والإسكندرية وأساطيل كل من أمالفي والبندقية، وانعكست العلاقة الجيدة التي كانت تجمع أمالفي مع الفاطميين في شمال افريقيا لتتوسع تجارتها الى مصر، فكانت هذه السفن تنقل الحديد والخشب لصناعة السفن والسلاح من أوروبا الى الفاطميين.

تشير وثائق الجنيزة المصرية[7] الى وجود تجار ومواطنين من أمالفي في مصر، وكان لهم مراسلات مع أقاربهم في أوروبا، مما يدل على ازدهار التجارة الأمالفية مع مصر وبلاد الشرق الإسلامي في تلك الحقبة، كما تدل

[7] وثائق الجنيزة: هي وثائق خطية كثيرة العدد، وُجدت في منطقة مصر القديمة وعرفت لعلماء الغرب في القرن التاسع عشر ووُزعت على مكتبات أوروبا وأميركا. وكانت هذه الوثائق محفوظة قبل اكتشافها في حجرة خصصت للأوراق المهملة في معبد الفسطاط اليهودي، ووُجد قسم آخر من هذه الوثائق في جبانة البساتين القريبة من المعبد، وأطلق على المجموعتين اسم وثائق الجنيزة القاهرة. وكلمة جنيزة العبرية مشتقة من كلمة الجنازة في اللغة العربية، ويرجع تاريخ معظم هذه الوثائق والتي تتكون غالبيتها من خطابات متبادلة بين اليهود وذويهم، الى الفترة ما بين القرنين الرابع والسابع الهجريين وقليل منها يرجع الى فترة متقدمةمن القرن الرابع الهجري. ويقدر عدد الأوراق التي كانت في هذه الجنيزة بما يزيد عن الربع مليون ورقة معظمها قطع من كتب عبرية وقد كتبت غالبية هذه الأوراق باللغة العربية بالحروف العبرية. وهي تعكس لنا الحالة الاقتصادية لبلدان البحر المتوسط والشرق في تلك الفترة. وطبقاً للعادة عند اليهود، كان من غير الجائز اتلافها او اهمالها خاصة إذا كانت تحوي اسم الله، كما كانت اللغة العبرية تعتبر لغة مقدسة، وقد نُشِر معظم هذه الوثائق، ولكن بعضها

الوثائق على وحدة البحر المتوسط في تلك المرحلة، والرحلات التجارية النشطة بين كل المرافئ على شواطئه، كذلك ازدهار البريد بين سكان المدن المتوسطية، كذلك أشارت الوثائق الى الزواج المتبادل بين معظم الاعراق والاجناس من ساكني هذه المدن[27].

يشير المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي[8] ان الأمالفيين الذين كانوا يسكنون في "دار مانك" القريبة من دار الصناعة بالمقس[9] في مصر، اتُّهِموا بإشعال حريق قضى على أسطول فاطمي كان قد اكتمل بناؤه للتو، وينوي التوجه لقتال البيزنطيين في بلاد الشام عام 986م، تعرض على إثرها التجار الامالفيين للهجوم من العامّة وقُتل منهم أكثر من مائة رجل، كما نهبت دورهم، وكانت التهمة أنهم حرقوا الأسطول نزولاً عند رغبة القسطنطينية لإحباط هجوم فاطمي[28]؛ ولكن بعض المؤرخين الأوروبيون يستبعدون ذلك ويرون أن الأمالفيين لن يخاطروا بمصالحهم التجارية الهامة. وعلى أي حال، لم تكن للحادث تداعيات مهمة على مسار العلاقات التجارية بين أمالفي والفاطميين، وتشير الأعداد الكبيرة للأمالفيين المقيمين في مصر في تلك الفترة الى دورهم الرئيسي في التجارة مع الفاطميين[29].

## 2.2 السلع المتبادلة مع العالم الإسلامي

كانت الأخشاب الضرورية لصناعة السفن، من السلع النادرة في مصر، وكانت البابوية تحرّم في معظم الأوقات بيعها للمسلمين وكذلك للدولة البيزنطية لاحقاً. بالإضافة الى الأخشاب والحديد، كانت سفن أمالفي تنقل القمح والثياب الكتانية والتي كانت تشتهر مدينة نابولي المجاورة بصناعتها، حتى ان الجغرافي الإدريسي سمّاها "نابل الكتان"[30]؛ وكانت المشروبات والفواكه والمنتوجات الزراعية من جنوب إيطاليا تصدّر الى شمال أفريقيا حيث

---

الآخر لم يُنشَر حتى الآن. وقد وضع المستشرق جوايتين Goitein مفتاحاً لوثائق الجنيزة في ثلاثة كتب. (المجلة التاريخية المصرية، المجلد 22، العدد 22، ص 33. أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة).

[8] الإنطاكي: (ت 1076م)، كان بطريركاً على الإسكندرية، ويعتبر كتابه " صلة تاريخ أوتيخا" من أهم المصادر التاريخية العربية في العصور الوسطى، كتب في تاريخ بيزنطية وعلاقاتها بالعالم الإسلامي بجناحيه المشرقي والمغربي، وكذلك علاقتها مع البلغار والروس والكرج والأرمن. يتناول تاريخه حقبة القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين، كان معاصراً لفترة من الحقبة التي أرخ لها (مقدمة عمر تدمري في تحقيقه لكتاب "تاريخ الإنطاكي").

[9] المقس: كانت بالأساس قرية بناها المسلمون العرب بعد فتح مصر، وكانت الميناء النهري الأساسي لمدينة الفسطاط ثم القاهرة، واسمها مستمد من المكس، ففيها كان يقيم صاحب المكس الذي يجبي الضرائب على البضاعة المستوردة (المكوس)، ثم تحولت في العهد الفاطمي الى دار لصناعة السفن.

يتم تبادلها مع الزيوت والشمع والعسل والذهب، خاصة في مرافئ تونس، والى أوروبا كانت تنقل السفن التوابل والمنسوجات والثياب الفاخرة الاحتفالية من القسطنطينية ومن مدن الشام خصوصاً انطاكية وكذلك من مصر، أما تجارة الرقيق، فقد زاولها تجار أمالفي لكن بدرجة اقل من تجار البندقية الذين كانوا أرباب هذه التجارة، خاصة ان البابوية كانت تشدد على منع هذه التجارة وتنبذها.

بالطبع فإن التجار الايطاليين كانوا يستفيدون من القوانين الإسلامية التي كانت تعطي الأمان للزوار والتجار، لما للتجارة الحرة من أهمية عند المسلمين ولها قواعدها الشرعية في الدين الإسلامي.

كانت روما وهي مركز البابوية، من أهم الأسواق التي تبيع فيها أمالفي البضاعة المستوردة من الشرق والشمال الأفريقي، وأصبحت أمالفي والبندقية بمثابة مستودع لمنتوجات الشرق الثمينة بالنسبة الى العالم الروماني الجرماني[31]. كانت معظم الهدايا التي تُنعم بها البابوية على رجال الاكليروس وكبار الزائرين من الثياب الفاخرة والعطور والتحف والمنتوجات الشرقية النادرة تأتي من أسواق أمالفي، وكانت مظاهر الأبهة والفخامة بدأت تتغلغل في ذلك الوقت في الحياة الإكليريكية في روما وباقي المراكز الدينية الهامة في الغرب الأوروبي، وفي إحدى المرات كان دزيدريوس Desiderius رئيس دير مونت كاسان الشهير Monte Cassino والقريب من روما، ينتظر زيارة الملك الألماني هنري الرابع للدير، فاشترى له هدية من أمالفي وهي عبارة عن قطعة من الحرير الأرجواني ثلاثي الألوان[32].

### 3.2 التنافس التجاري مع المدن التجارية الإيطالية

منذ العام 992م حصلت البندقية وأمالفي على امتيازات خاصة في مدينة القسطنطينية كتجار مفضّلين، وأصبح لهما مراكز وأحياء خاصة بهما، فأصبح للمدينتين ما يشبه الاحتكار لكل تجارة أوروبا مع بيزنطية، كذلك حصل تجار أمالفي على امتيازات خاصة في ميناء أنطاكية البيزنطية وقتها، وهكذا حملوا المنتوجات الشرقية من الشواطئ السورية الى أسواق الغرب[33]، كما حملوا المنتوجات الشرقية وخاصة الحرير، والتي كانت تأتي من الصين عبر آسيا الصغرى الى مدينة طرابزون[10] ثم الى القسطنطينية.

الملامح الحضارية لهذه العراقة في التجارة البحرية والاحتكاك مع المسلمين والبيزنطيين، ظهرت في أول قانون بحري إيطالي وضعته مدينة أمالفي ويعرف باسم "لوائح أمالفي او جداول أمالفي Tabula

[10] طرابزون هي مدينة بيزنطية على شواطئ البحر الأسود، كانت مركزاً تجارياً مهماً في العصور الوسطى على طريق الحرير بين آسيا وأوروبا (محمود عمران، الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، 2009، ص 345).

Amalfitana والذي أصبح القانون البحري المعمول به في إيطاليا وفي جميع موانئ المتوسط لمئات السنين، وساهم بانتشار الحضارة واللغة الإيطالية في المتوسط بفضل التجار الامالفيين[34].

مطلع القرن الحادي عشر ومع بداية سطوع نجم مدينتي جنوا وبيزا الايطاليتين في تجارة المتوسط، شاركت المدينتين في التصدي للهجمات الإسلامية على الأراضي الإيطالية، بل وشاركتا في غزو المسلمين في الشمال الافريقي بهدف الحصول على امتيازات تجارية مع هذه المناطق[35]، بينما لم تسجل المصادر التاريخية أي مشاركة لمدينة أمالفي في هذه العمليات البحرية لما كان لها من علاقات تجارية جيدة مع الفاطميين، بالمقابل لم تتعرض مدينة أمالفي الثرية لأي هجوم إسلامي رغم حصول العديد من الهجمات الإسلامية على غيرها من المدن في البر الإيطالي[36]، ويعزي بعض المؤرخين هذه العلاقات المميزة بين الجانبين الى الدور الهام الذي لعبته أمالفي في تأمين الأخشاب والحديد وغيرها من مستلزمات بناء الأسطول الفاطمي الذي لعب دوراً هاماً في توسع الدولة الفاطمية وسيطرتها على مصر وبعض جزر المتوسط وبلاد الشام، ويبدو انهم أتوا الى مصر مع طابور الفاتحين الفاطميين وبدأوا يتوافدون على مصر وبلاد الشام حتى غدت مصر كعبة تجار أمالفي في الحقبة الفاطمية[37].

كان لتجار أمالفي ومواطنيها أحياء سكنية خاصة بهم في معظم المدن التجارية في مصر وبلاد الشام، فكان لهم حي خاص وكنيسة ومساكن للحجاج الغربيين في بيت المقدس، ولا بد من الإشارة الى سياسة التسامح الديني للمسلمين بشكل عام، وللفاطميين بشكل خاص مع باقي الطوائف، وظهر ذلك في تولي غير المسلمين بعض المناصب العالية في الدولة الفاطمية مثل الأرمن واليهود على حد سواء.

### 4.2 أوضاع التجار الأمالفيين في الشرق

برزت عوامل أخرى دفعت بالنشاط التجاري في المتوسط للتركز بين مصر والمدن الإيطالية وفي مقدمتها أمالفي، من أهم هذه العوامل، تحول تجارة المحيط الهندي والخليج الفارسي الى البحر الأحمر بسبب الاضطرابات في بلاد فارس والعراق، كذلك تركيز الفاطميين على جعل مصر مركزاً أساسياً لتجارتهم وإهمال الشمال الافريقي، خاصة بعد تعرضه لغزوات بني هلال[11]، وحدوث نشاط إسلامي حربي في غربي المتوسط. أسعار التوابل والسلع الشرقية كانت أرخص في مصر مقارنة مع باقي المدن الإسلامية، وازدياد عدد حملات الحجاج المسيحيين القادمين من أوروبا الى فلسطين، ومرورهم بصحراء سيناء، وازدياد عدد النساء في هذه الحملات وتوسعها لتشمل كل

[11] هم قبائل عربية هاجرت الى مصر، ثم انتشرت في شمال افريقيا في تلك الحقبة مثيرة هناك الحروب والقلاقل لفترة طويلة (موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للابداع الفكري، الشارقة، 1998، ص 10063).

الطبقات الاجتماعية في أوروبا وليس فقط طبقة النبلاء والأغنياء، نظراً لموجة من التقوى والتدين التي عمّت أوروبا المسيحية في حينه، والتي سبقت الحملات الصليبية.

شيّد الامالفيون لهذه الغاية مستشفى ودار للضيافة في انطاكية، كذلك مقراً في بيت المقدس، حيث بنوا ديراً وكنيسة وألحقوا بهما أماكن للإقامة لهم وللرهبان، يؤدون فيها الصلوات باللاتينية وفق المذهب الغربي الكاثوليكي تميزاً لهم عن السريان والارثوذكس في بيت المقدس، كما اقاموا داراً للضيافة مخصص للقادمين من إقليم أمالفي بصورة خاصة؛ كما بنوا ديراً أصغر باسم القديسة مريم المجدلية والحقوا به داراً لضيافة النساء وعدد من الراهبات البندكتيات[12] من أجل خدمة الحجاج من النساء وأعمال التمريض[38]، واستمر هذا الوضع حتى انتقال السيادة على المدينة من الفاطميين الى السلاجقة عام 1065م.

يستشف من احدى وثائق الجنيزة، بأن تجار أمالفي كانوا يعمدون الى الكتابة باللغة العربية لتوثيق تجارتهم، والتي تعلّموها من المسلمين، وذلك يوضح مدى التقدم الحضاري للمدينة والتبادل الثقافي الذي حصل بين المسيحين في الغرب وفي طليعتهم مدينتي أمالفي والبندقية مع المسلمين في الشرق؛ كما تشير الى ان اللغة العربية كانت اللغة العالمية إن صح القول المعتمدة في تجارة المتوسط كحال اللغة الإنكليزية في أيامنا الحاضرة[39].

## 3.تجارة أمالفي زمن النورمان والصليبيين

### 1.3 الاحتلال النورماني للجنوب الإيطالي

العصر الذهبي لتجارة أمالفي وتقاسمها مع البندقية للسيادة التجارية في المتوسط، بدأ بالتدهور مع تغير الأحوال السياسية في جنوب إيطاليا، وأحد أهم الأسباب هو الغزو النورماني لهذه المنطقة. وصل النورمان الى المنطقة من منطقتهم نورمنديا في شمال فرنسا كجند مأجورين بطلب من بعض المدن الإيطالية لمساعدتها في نزاعاتها مع اللومبارديين، ولصد الغارات الإسلامية عليهم، وكان النورمان من المقاتلين الأشداء خبروا البحر وتمرسوا في

[12] نسبة الى القديس بندكت (480-543م) والذي أسس النظام الديري الإيطالي وحمل اسمه وحصل على تأييد البابوية وكان له مكان الصدارة في الأنظمة الديرية في الغرب الكاثوليكي (المصدر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور ص 147 و148).

الحروب البحرية، وسرعان ما تكاثروا وأصبحوا منذ النصف الأول للقرن الحادي عشر، قوة عسكرية مهمة انتزعت اعتراف البابوية بكيانهم السياسي في الجنوب الإيطالي عام 1059م، بل واستعانت بهم البابوية أحياناً في صراعاتها مع الإمبراطورية الألمانية المقدسة.

استمر توسعهم حتى ابتلاع معظم الجنوب الإيطالي لاحقاً بما فيه مدينة أمالفي نفسها، واستولوا على مدينة باري[40] التجارية وكانت آخر معاقل البيزنطيين في جنوب إيطاليا، كما نجحوا في انتزاع جزيرة صقلية بالكامل من المسلمين عام 1091م، واستطاع زعيمهم روجر الثاني توحيد جميع الأراضي التي فتحها النورمان، واتخذ لقب ملك الصقليتين سنة 1131م، وضمت مملكته، صقلية ومعظم الجنوب الإيطالي[41]. وفي الشرق، توسع نفوذ السلاجقة[13] في آسيا الصغرى وبلاد الشام، وكان ذلك التوسع على حساب بيزنطية والفاطميين، لتتوج هذه المرحلة بانطلاق الحملة الصليبية الأولى الى المشرق العربي سنة 1097م.

ما يهمنا هنا هو وضع مدينة أمالفي، فقد هوجمت من قبل مدينة سالرنو عام 1052م وخضعت لها، وبعد ان استطاعت التخلص من سيطرتها، عادت لتخضع لها ثانية، ولكن هذه المرة لم تستطع أمالفي التخلص من سيطرة سالرنو الا بالتحالف مع النورمان بقيادة زعيمهم جيسكارد[42] Giscard سنة 1077م، فتغيرت التبعية السياسية لأمالفي من البيزنطيين الى لنورمان، ولكنها بقية تحتفظ بنظامها الجمهوري وبحريتها التجارية وحرية الدفاع عن نفسها، واستمر هذا الوضع حتى سقوط نظامها الجمهوري نهائياً سنة 1131م.

خلال هذه الفترة التي امتدت لأكثر من خمسين عاماً، حصلت خلالها تغيرات سياسية مهمة في حوض المتوسط، كان لا بد ان تنعكس تغيرات في الحركة التجارية البحرية، فكانت أمالفي في طليعة الخاسرين، فبعد أن أصبحت تبعيتها نورمانية وليس بيزنطية، خسرت امتيازاتها التجارية التي كانت بحوزتها في القسطنطينية لتخسر الصدارة في تجارتها على خط آسيا طرابزون القسطنطينية، نظراً للعداء المستحكم بين بيزنطية والنورمان. أصبحت البندقية هي صاحبة الامتيازات الأولى في عاصمة بيزنطية، خاصة وأنها وقفت الى جانب بيزنطية في التصدي لهجمات النورمان في البحر الادرياتيكي[43]، وأخضعت الجالية الأمالفية في القسطنطينية للبندقية، لكن هذا الغزو السلمي، والودي ظاهرياً للبندقية، كلّف بيزنطة أفدح الأثمان لاحقاً حين شارك البنادقة بفعالية في قيادة الحملة الصليبية الرابعة والتي انتهت بسقوط القسطنطينية بيد الصليبيين[44] لأكثر من نصف قرن. إضافة الى ما سبق، كان

[13] السلاجقة نسبة الى سلجوق زعيم تلك القبائل التركية، الذي وحدها ثم اعتنقوا الإسلام وتفوقوا عسكرياً وسيطروا على الخلافة العباسية وأصبحوا على تماس مع البيزنطيين والفاطميين (الحناوي، المصدر نفسه، ص 174).

التمدد السلجوقي في بلاد المشرق، وما شاع عن تعرض الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس للهجمات السلجوقية، خصوصاً وان الدولة السلجوقية تمزقت الى امارات واتابكيات[14]، مما ساهم في نشر الفوضى واضطراب الامن وتعرض المسافرين للسطو وليس حصراً الحجاج الى بيت المقدس.

### 2.3 أمالفي وتصاعد حركة الحج الى الشرق

أطلق على القرن الحادي عشر أسم عصر الحج، فكانت قوافل الحج تتلاقى في كنائس روما ثم تعبر البحر المتوسط من الموانئ الإيطالية القريبة لروما، وكانت أمالفي أهم تلك المرافئ. وتطورت هذه الحملات لتصبح مدججة بالسلاح يقودها عادة أسقف أو أحد الامراء الإقطاعيين، وقد وصلت أعداد بعض الحملات الى الآلاف[45]، وكان الحجاج العائدون الى أوروبا يروون ما شاهدوه في الشرق من رخاء وازدهار؛ ترافق ذلك مع ازدياد الشعور بالعداء للمسلمين، واسترداد جزيرة صقلية وبعض مدن الأندلس مثل طليطلة من أيدي المسلمين، كل ذلك كان من الأسباب الهامة التي شجعت على قيام الحملات الصليبية لاحقاً.

نشطت أمالفي في تشجيع حركة الحج الى فلسطين وتأمين الإقامة والطبابة للحجاج الغربيين[15]، وسمح لهم حاكم بيت المقدس بموافقة الخليفة الفاطمي، باختيار الموقع وبناء المنشأة التي حملت اسم القديس يوحنا المتصدّق وهو بطريق الإسكندرية الخيّر في القرن السابع[46]. كانت سفن أمالفي هي المفضلة للسفر الى فلسطين، وهكذا كان لمساهمة أمالفي في تنشيط حركة الحج الى فلسطين ومن غير قصد، نتائج سلبية على تجارتها، بعد

[14] نسبة الى الاتابك وهو مربي الأمير عند السلاجقة، وأسس بعض الاتابكة دولاً في الإمبراطورية السلجوقية، أهمها اتابكية الزنكيين في الموصل والتي امتدت سيطرتها الى بلاد الشام أيام نور الدين زنكي (موجز دائرة المعرف الإسلامية).

[15] المستشفى التي أسسها في القدس تجار أثرياء من أمالفي لرعاية الحجاج المرضى والفقراء في القرن الحادي عشر، هو Hospitallers، فبعد سيطرة الصليبيين على القدس عام 1099 خلال الحملة الصليبية الأولى، كثّف رئيس المستشفى عمله في القدس، وكان راهباً يُدعى جيرارد، وأسس نزلًا في مدن بروفنسية وإيطالية على الطريق إلى الأراضي المقدسة. تم الاعتراف به رسمياً من البابا عام 1113م، ثم تحولت هذه الفرقة لاحقاً الى منظمة عسكرية واكتسبت الثروة والأراضي، وجمعت بين مهمة رعاية المرضى والدفاع عن المملكة الصليبية إلى جانب منظمة فرسان الهيكل، ومنظمة التيتون الألمان، وأصبح فرسان الاسبتارية النظام العسكري الأكثر رعباً في الأرض المقدسة (ستيفن رانسيمان، بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان؛ سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، 2011).

انتصار أولى الحملات الصليبية، ولم يتسن لهذه الحملات الانتصار لولا الدعم البحري من الاساطيل الأوروبية، وهكذا مثلت مدن ثلاث وهي جمهوريات البندقية وجنوا وبيزا العنصر التجاري البحري في الحروب الصليبية[47].

### 3.3 أمالفي بعد الغزو الصليبي

بعد تأسيس مملكة القدس وإمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، واحتلال كل الشواطئ السورية والفلسطينية من انطاكية الى عسقلان، حظيت كل من جنوا والبندقية بحصة الأسد في كل المرافئ المتوسطية التي تمت السيطرة عليها مثل انطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا وقيسارية وأرسوف مع أرجحية لجنوا، كذلك في الأسواق الداخلية، وامتلاك أحياء بكاملها وأقطاعات وكنائس، حتى في قلب بيت المقدس، وكان التنافس بين المدينتين بدأ يظهر للريادة على تجارة البحر المتوسط، ثم جاءت بيزا في المرتبة الثالثة لأنها في الأصل لا تملك الأساطيل البحرية الكبيرة مقارنة بمثيلاتها البندقية وجنوا، أما أمالفي والتي لم يشارك اسطولها ولا مواطنيها في الحملة الصليبية الأولى، فقد استطاعت الحفاظ على بعضٍ من ممتلكاتها القديمة في هذه المدن، مثل أنطاكية وبيت المقدس، وكانت الهبات الممنوحة للأمالفيين زهيدة مقارنة مع ما حصل عليه البنادقة والجنويين والبيزيين، بسبب عدم مشاركتها في الحملة، كذلك حصلت مرسيليا الفرنسية على بعض الهبات، ولم تسجل الوثائق التاريخية العائدة للعصر الصليبي وجود أي إقطاعي من أمالفي في الأراضي التي سيطر عليها الصليبيون في الشرق[48].

### 4.3 تدهور تجارة أمالفي

يتبين من كل ما تقدم ان تجارة أمالفي أصابها الوهن بعد بروز وسطاء تجاريون جدد في المتوسط مثل جنوا وبيزا، واحتفاظ البندقية بنصيبها الكبير من هذه الوساطة، وتدل الوثائق على استمرار أمالفي في تجارتها المتوسطية لكن بوتيرة أقل بكثير من ذي قبل، اذ ان المتغيرات الجذرية على سواحل هذا البحر وأهمها قيام الممالك والامارات الصليبية، أصابت تجارة أمالفي في الصميم، ترافق ذلك مع فقدان أمالفي لاستقلالها وخضوعها بالكامل لسيطرة النورمان، بعد فشلهم في محاولة للتخلص من هذه السيطرة سنة 1096م وهي السنة التي جرى فيها الإعداد للحملة الصليبية الأولى، التي شارك فيها النورمان ولم تشارك فيها أمالفي، بل عمد النورمان الى الإبحار بالسفن الجنوية عقاباً لها على مراميها الاستقلالية بمحاولات التخلص من التبعية النورمانية[49].

استمر هذا التدهور في أحوال أمالفي التجارية الى العام 1130م، حيث استطاع روجر الثاني[16] توحيد النورمان في مملكة واحدة ضمت صقلية ومعظم الجنوب الإيطالي، ففقدت أمالفي حريتها ونظامها الجمهوري بالكامل، خصوصاً بعد أن تعرضت لعمليات نهب واسعة النطاق على يد البيزيين بين عامي 1135 و1137م، وبدأت من ذلك الوقت السيطرة النورمانية المباشرة عليها، وسقط نظامها الجمهوري سنة 1131م بعد ان نعمت به لفترة امتدت لأكثر من مئتين وتسعين عاماً (839 – 1131م). بعدها قام الملك النورماني روجر الثاني بحماية الأنشطة التجارية لشعب أمالفي في مملكته وداخل إيطاليا فقط، لكنه قطع علاقات المدينة مع العرب المسلمين والبيزنطيين.

بعد حوالي قرنين من الزمن، وبالتحديد في 24 نوفمبر من العام 1343م، ضربت موجات مائية عارمة (بما يشبه التسونامي) خليج أمالفي ودمرت القسم الأسفل من المدينة وابتلعت مينائها البحري بكل تجهيزاته والتحصينات البحرية المشهورة للمدينة؛ وعلى الأرجح انها كانت ناجمة عن زلزال حصل في جنوب البحر التيراني[50]، ومنذ ذلك الحين لم تستطع أمالفي التعافي والعودة الى ميدان التجارة البحرية على الإطلاق؛ وأصبح ماضيها التجاري والحضاري من الأمجاد التاريخية للمدينة التي كانت يوماً من أهم الحواضر البحرية في غربي المتوسط[51]، وهي اليوم منتجع سياحي.

## 4. دور أمالفي الحضاري في العصور الوسطى

### 1.4 القانون البحري الأمالفي

يظهر من كل ما تقدم، ان أمالفي كانت السبّاقة في إقامة العلاقات الودّية مع العرب والمسلمين في شمال أفريقيا بما فيها مصر، وفي شرقي المتوسط لاحقاً، وبالطبع مع البيزنطيين حيث كانت تبعيتها السياسية، وكان لا بد من هذه الروابط التجارية أن تنعكس تبادلاً حضارياً في نواحٍ عدة، ساهمت في نقل الكثير من مظاهر الحضارتين

[16] روجر الثاني: (1095 – 1154م)، ملك صقلية أو ملك الصقليتين (1130 – 1154م) والتي كانت تضم جزيرة صقلية وأجزاء كبيرة من جنوب إيطاليا، ازدهرت في أيامه الحركة العلمية، وكانت عاصمته تعج بالعلماء المسلمين والأوروبيين، وأهمهم الرحالة والجغرافي العربي المعروف بالإدريسي.

(Roger II summary. (n.d.). Encyclopedia Britannica).

الإسلامية والبيزنطية الى إيطاليا ومنها الى الغرب المسيحي برمته؛ خاصة وان المسلمين والبيزنطيين كانوا متقدمين حضارياً على الغرب الاوروبي بأشواط في كافة الميادين العلمية والثقافية.

كما مرّ معنا، وضعت أمالفي أول قانون بحري وتجاري إيطالي مكوناً من عشرات المواد، ويطلق عليه تسمية "جداول أمالفي" أو "لوائح أمالفي"، ويبدو من محتواه أن أمالفي كان لديها قناصل في كل مدن المتوسط منذ وقت مبكر، وان هذه القوانين شكلت الأساس لتنظيم حياة الأمالفيين الذين عمل غالبيتهم في التجارة، وواكبوا التقدم الحضاري باكراً، واليوم لا تزال نسخة من هذا القانون موجودة في دار البلدية في وسط أمالفي[52].

### 2.4 العلاقة التجارية مع روما

كان مدينة روما وهي مركز البابوية، مركزاً مهماً لتجارة أمالفي، فكانت تحتكر الى جانب البندقية بيع الملابس الرسمية الخاصة بالاحتفالات، والطقوس الدينية الاحتفالية الفاخرة، بالإضافة الى التحف الشرقية والعطور والبخور والمجوهرات والأحجار الكريمة والعاج، واللؤلؤ والأقمشة المنقوشة والمزخرفة، والأردية الحريرية التي كان يرتديها النبلاء في أوروبا من رجال دين وعلمانيين؛ كذلك حصولهم على هدايا مشابهة عند زياراتهم لمدينة القديس بطرس، إضافة الى الصلبان والشمعدانات المزينة والأصباغ[53]. وسير بابوات القرن التاسع تزخر بمعلومات عن الهبات التي كان البابوات يمنحونها لمختلف كنائس روما، وحليات ثمينة للقساوسة وبسط وطنافس لتغطية الجدران والمعابد، والكثير من هذه الأقمشة صُنعت في الإسكندرية أو بيزنطة[54].

### 3.4 صناعة الورق واستعمال البوصلة

كانت أمالفي هي السباقة في إنشاء أول مصنع للورق في أوروبا، وقد اقتبست تلك الصناعة من العرب الذين بدورهم نقولها باكراً من الصين الى مدن بغداد ودمشق وغيرها، ومن أمالفي انتشرت هذه الصناعة في أوروبا، وبدأت انتاجه في النصف الأول من القرن الثاني عشر. ولا يزال متحف البلدة حالياً يحتفظ بالآلات القديمة لصناعة الورق في القرون الوسطى[55].

أما بالنسبة الى البوصلة، فمن شبه المؤكد بأن الصينيين كانوا أول من استعملها، وأخذها العرب عنهم، ومن شبه المؤكد ان تجار أمالفي كانوا من أوائل من أستخدم البوصلة في الغرب الأوروبي لأنهم من أوائل تجار أوروبا الغربية في المتوسط في حقبة القرون الوسطى.

### 4.4 المؤثرات الحضارية

في الميدان العمراني، لعبت أمالفي دوراً بارزاً في الاقتباس التقدم العمراني الإسلامي والبيزنطي. من الأمثلة على ذلك، جلب تاجران ثريان من امالفي أبواب برونزية من القسطنطينية لتركيبها في كاتدرائية مدينتهم، ولشدة إعجاب آخرين بهذه الأبواب، عمدوا الى استيراد مثيلاتها. كما عجّت قاعات الاستقبال في بيوت الأثرياء بالمدينة بالتحف والزخارف الشرقية قبل انفتاح المدينة على الفن القوطي. وبالتالي فإن الشخصية الفنية المعمارية في أمالفي وضواحيها تأثرت الى حد كبير بالاحتكاك الحضاري مع شعوب البحر المتوسط وخاصة مع المسلمين والروم، ولازالت العديد من المنازل تحوي على أعمدة طويلة بجانب المداخل، وكذلك الكنائس بادية التأثر بالعمارة الإسلامية، فالعلاقات التجارية مع الشرق تضمّنت كذلك ممرات ثقافية؛ وقام أحد أفراد الأسر الثرية من أمالفي واسمه Maurus موروس وابنه Panteleon بانتيليون والذي كان يمتلك قصراً في القسطنطينية، بالاستعانة بصنّاع ماهرين من القسطنطينية والإسكندرية لتزيين قصرهما بالزجاج المعشق والفسيفساء.

في كتاب عن فن العمارة في القرون الوسطى، تسلّط الكاتبة جيل كاسكيJill Caskey الضوء على فن العمارة في منازل التجار الأثرياء في أمالفي في تلك الحقبة مثل عائلة روفولوس Rufolos، والتي تُظهر التأثر الكبير بالفنون المعمارية الإسلامية خاصة والمتوسطية عامة، مبينة ثقافة التجار الأمالفيين التي تولدت في تلك الحقبة من احتكاكهم مع شعوب المتوسط[56].

أما في مجال النقود، فبعد اندثار العملة الرومانية استعمل الغرب النقد البيزنطي النوميسما Nomisma والصولدي الذهبي Soldi، لكن بعد صك العرب للنقود، بدأ الغرب باستعمالها، وكانت أمالفي تتاجر بالذهب العربي، وخاصة المنقوش Mancus الفاطمي، وزاد تداوله في الغرب الأوروبي وحل مكان الصولدي الذي توقف إصداره في منتصف القرن الثامن، وأصبح المنقوش هو الأكثر تداولاً في إيطاليا؛ وبعد ان أصدر الفاطميون عملة جديدة هي ربع الدينار أو الربع، قلّدها الامالفيون وسكّوا لهم عملة على غرارها أسموها التاري Taridi Amalfi، مما يدل على حجم التجارة الغربي الهام مع العالم الإسلامي[57]، ويبدو أن أمالفي كانت أول المدن الإيطالية التي سكّت العملة في العهد النورماني بعد احتلال صقلية من المسلمين واستفادتهم من تراثها النقدي الإسلامي، وتبعتها المدن الأخرى مثل البندقية وجنوا وبيزا وفلورنسا[58].

ومن المؤثرات الثقافية، تأثر اللغات الأوروبية بإدخال ألفاظ تجارية عربية مثل Arsenale بمعنى الترسانة، Magazine المخزن، Traffico بمعنى المرور، Fondac الفندق، Traiffaتعريفة وغيرها

الكثير[59]؛ ويقول هايد في كتابه عن التجار الأمالفيين والبنادقة في ذلك الوقت: "وتدين إيطاليا لهؤلاء بنوع خاص بتزويدها بمنتجات الشرق التي كانت تحصل عليها بوفرة والتي أسهمت بقدر كبير في تهذيب الطبائع"[60].

**الخاتمة**

إن الهدف المرتجى من هذه الدراسة هو إلقاء الضوء، ولو خافتاً، على فترة التجارة المتوسطية بين الشرق والغرب قبل الحروب الصليبية، والتي تفردت بريادتها مدينتي أمالفي والبندقية الإيطاليتين اللتان ساهمتا باكراً في نسج العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، بخاصة مدينة أمالفي التي كانت تركز على الجوانب التجارية، وتجافي ما أمكن التدخل العسكري والسياسي.

من أهم الاستنتاجات التي خلصت اليها الدراسة، أن امالفي كانت تركز على تجارتها مع المسلمين دونما تدخل في شؤونهم السياسية إلا ما ندر، واستطاعت بذلك كسب احترامهم، فأقامت معهم علاقات تجارية واجتماعية ودّية وحضارية، حتى انها رفضت الانصياع للقرارات البابوية والبيزنطية بقطع العلاقات مع المسلمين أو منع تصدير بعض السلع المهمة اليهم، بعد تعاملها معهم عن قرب ووقوفها على سبقهم الحضاري، بالمقابل، أوضحت الدراسة كيف حرمها الملوك والامراء الغربيون من المنافع الاقتصادية في البلاد التي استولوا عليها في الشرق العربي، بسبب عدم مشاركتها في الحملات الصليبية ضد المسلمين.

هكذا نستنتج ومنذ العصور الوسطى المبكرة، بأن العلاقات بين الشعوب المبنية على الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للغير، وعدم إخضاع المنافع الاقتصادية للأهداف السياسية، هي الأسس الصحيحة للعلاقات الحضارية السليمة بين الشعوب مهما تغيرت الأزمان، وهي الطريق الى عولمة حضارية إيجابية، لا تنتقص من المنجزات الحضارية للأمم الأخرى..

أخيراً، لا بد للباحثين في التاريخ، من التركيز أكثر على الجوانب المضيئة في العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، والتفاعل الحضاري المبكر بينهما، كما في حالة مدينة أمالفي، والذي وضع اللبنات الأولى للحضارة الغربية، كما ساهم بانتقال الغرب من مرحلة الاقطاع وعصر الظلمات الى زمن المدن التجارية والصناعية، فالكتب العربية التي تناولت العلاقات بين المسلمين ومدينة أمالفي هي نادرة جداً، ويجب العمل على المزيد من كتابة الأبحاث والدراسات حول هذا الموضوع، لأن ذلك يساهم بلا شك في تغيير نظرتنا السلبية الى تاريخ علاقاتنا مع الغرب ومآسيها في حقب كثيرة، والذي لا تزال آثارها ممتدة الى وقتنا الحاضر، كما يساهم في الإضاءة

على الماضي الإيجابي في هذه العلاقات، ويدفع في اتجاه بناء علاقات صحيحة مبنية على احترام مختلف الثقافات والأديان.

**الاحالات والمراجع:**

[1] مصطفى الحناوي، العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، 2005.

[2] فرناند بروديل (1902-1985) Fernand Braudel، هو مؤرخ فرنسي ومدير مجلة الحوليات الفرنسية لفترة طويلة، اشتهر بدراسته الضخمة بعنوان "المتوسط والعالم المتوسطي" والتي ترجمت الى العديد من اللغات، يعتبر من ألمع المؤرخين في القرن العشرين.

https://www.britannica.com/biography/Fernand-Braudel

[3] مُحَمَّد ابو صوة، دراسات في تاريخ البحر الابيض المتوسط في العصر الوسيط، Elga، Valetta، Malta، 2000، ص 17-19.

[4] ملفي Melfi: بلدة رومانية قديمة في منطقة بازيليكاتا، انتزعها النورمان من البيزنطيين وكانت عاصمتهم لفترة، كانت مكان الإقامة المفضّل للإمبراطور الروماني المقدس فريدريك الثاني.

Melfi. (n.d.). Encyclopedia Britannica. https://www.britannica.com/place/Melfi

[5] Augustus J.C Hare, Cities of southern Italy, E.P. Dutton & company, New York, 1911, p 118.

[6] سعيد عاشور، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت، 2017، ص 311.

[7] الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 758.

[8] وليم الصوري (1130- 1186)، مؤرخ وأسقف مدينة صور في العصر الصليبي، من أصل إيطالي، كتب عن فترة الحروب الصليبية، كان سفيراً لمملكة القدس الصليبية لدى البابوية.

[9] Willaim of Tyre: A History of Deeds done Beyond the Sea, Trans lated by A. &. Krey, Columbia University Press, New York, 1943, p 242.

[10] مُحَمَّد بن حوقل النصيبي (-- - 977م): رحالة وجغرافي عربي، سافر بين عامي 943 و969م، زار صقلية وإيطاليا، وهو أول رحالة مسلم يزور أوروبا.

[11] ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1992، ص 184.

[17] نيامين التطلي (ت 1173م)، ينسب الى مدينة تطيلة في شمال الأندلس، هو رحالة يهودي، بدأ رحلته من الاندلس ووصل الى الصين زار خلالها ايطاليا، وكتب حصراً عن أحوال اليهود في البلدان التي مرّ بها https://www.britannica.com/biography/Benjamin-of-Tudela

[13] التطيلي، بنيامين، (2002). رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، المجمع الثقافي ابو ظبي، ابو ظبي، 2002، ص 206.

[14] A.Citarella, The relations of Amalfi with the Arab World before the Crusades, The Medieval Academy of America, 42(2), April 1967, pp. 299-312.

[15] عاشور، المصدر نفسه، ص 119-121.

[16] انظر في الملاحق خريطة إيطاليا في العام 1000م.

[17] عاشور، المصدر نفسه، ص 134.

[18] شارلمان Charlemange (747-814م)، مؤسس امبراطورية الفرنجة والتي ضمت معظم أراضي أوروبا الغربية في القرن التاسع (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور).

[19] Beazley,The Dawn of Modern Geography, Vol. 2, London, 1901, p397.

[20] البابا غريغوري الأول (540-604)، أصبح للبابوية في عهده سيادة عظيمة في أوروبا، ودانت لنفوذه الكنيسة الغربية كخليفة للقديس بطرس. (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عاشور ص 57).

[21] الحناوي، المصدر نفسه، ص 52-54.

[22] المدن الأربعة هي مدن ساحلية إيطالية، وتعاطت كلها التجارة في القرون الوسطى.

[23] هنري بيرين، تاريخ اوروبا في العصور الوسطى/الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ص 23.

[24] فلهالم هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى المجلد1، ترجمة أحمد رضا وعز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، ص 14.

[25] K. Matze, Economic Warefare: The rise of the Italian Merchant States and the Crusades,The Institute for the Study of Western Civilization, 2011, p13.

[26] ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى وشفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ب.ت، ص 270.

[27] صابر دياب، دراسات في عالم البحر المتوسط في القرون الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد 24، 1977، ص 62-70.

[28] يحي بن سعيد إنطاكي، تاريخ الإنطاكي" المعروف بصلة تاريخ أوتيخا"، تحقيق عمر تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، 1990، ص232-233.

[29] الحناوي، المصدر نفسه، ص 132.

[30] الإدريسي، المصدر نفسه، ص 757.

[31] هايد، المصدر نفسه، ص 139.

[32] هايد، المصدر نفسه، ص 122.

[33] هايد، المصدر نفسه، ص 335-336.

[34] الحناوي، المصدر نفسه، ص 60.

[35] دياب، المصدر نفسه، ص 56.

[36] الحناوي، المصدر نفسه، ص 118.

[37] الحناوي، المصدر نفسه، ص 121.

[38] الحناوي، المصدر نفسه، ص 149-150.

[39] المصدر نفسه، ص 163-164.

[40] مدينة وميناء تجاري إيطالي على البحر الادرياتيكي، تعود الى ما قبل العهد الروماني، ثم أصبحت مركزاً للحاكم البيزنطي في منطقة أبوليا Apulia، استولى عليها المسلمون لفترة من الوقت، ثم انتزعها النورمان من البيزنطيين سنة 1071م.

[41] عاشور، المصدر السابق نفسه، ص 308-314.

[42] هو روبرت جويسكار، أصبح زعيماً للنورمان بين عامي 1057و 1085، وهو الأخ الرابع للأخوة الثلاثة الذين يلقبون الأخوة "هوتفيل Hauteville"، (عمران، المصدر نفسه).

[43] الحناوي، المصدر نفسه، ص 188-192.

[44] عمران، المصدر نفسه، ص 264، 298.

[45] عزيز عطية، العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية-ثقافية-صليبية)، ترجمة فيليب سيف، دار الثقافة، القاهرة، 2000، ص 31-34.

[46] رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، المجلد 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ص 118.

[47] هايد، المصدر نفسه، ص 145.

[48] هايد، المصدر نفسه، ص 145-160.

[49] الحناوي، المصدر نفسه، ص 206.

[50] Rosi, M., Levi, S.T., Pistolesi, M. et al. Geoarchaeological Evidence of Middle-Age Tsunamis at Stromboli and Consequences for the Tsunami

Hazard in the Southern Tyrrhenian Sea. Sci Rep 9, 677 2019. https://doi.org/10.1038/s41598-018-37050-3.

[51]Armand CITARELLA, Armand. "Patterns in Medieval Trade : The commerce of Amalfi before the Crusades.", The Journal of Economic History 299, 1968, p531.

[52] الحناوي، المصدر نفسه، ص 291-299.

[53] الحناوي، المصدر نفسه، ص 229-231.

[54] هايد: المصدر نفسه، ص 110.

[(55]Amalfi's paper making tradition. (2018, May 7). Charming. https://www.charmingitaly.com/article/campania-amalfi-paper

[56] Jill Caskey, Art and Patronage in Medieval Mediterranean: Mercahnt Culture in the region of Amalfi, Cambridge University Press, 2004, p 93.

[57] الحناوي، المصدر نفسه، ص 266.

[58] عادل زيتون، العلاقات الإقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1980، ص 48-49.

[59] زيتون، نفس المصدر، ص 267.

[60] هايد، المصدر نفسه، ص 139.